



يصعب كثيراً حصر أعداد السوريين، ذكوراً وإناثاً، الذين اعتقلتهم أجهزة الاستخبارات، وأدخلتهم غياب معتقلات النظام الأسدية، بنسختيه، الأب والابن، حيث عجزت جميع منظمات حقوق الإنسان، السورية والدولية، عن تقديم إحصاء دقيق لعدد المعتقلين، خاصة خلال ثمانينيات القرن الماضي، أو منذ اندلاع الثورة السورية وإلى يومنا هذا.

وهناك من يعتبر أن أكثر من 250 ألف سوري اعتقلوا منذ بداية ثورة الخامس عشر من آذار/مارس 2011، إلى اليوم، فيما يعتبر آخرون أن العدد أكبر، وآخرون غيرهم يعتبرون العدد أقل. والأمر يزداد صعوبة بالنظر إلى أن أجهزة النظام السوري المتعددة، التي يصعب حصرها، تخفي على الدوام أعداد المعتقلين لديها، بل وتعتقل الناس، وتختطفهم من كل مكان تصل إليها، ثم تنكر وجودهم لديها، والأمثلة على ذلك كثيرة ولا حصر لها.

وقد يكون محظوظاً من يعتقل لفترة من الزمن، ثم يطلق سراحه، كي يولد من جديد، لأنآلاف المفقودين في سوريا، جرت عمليات تصفيتهم وقتلهم على يد أجهزة الأمن والشبيحة، بل ويدخل في معظم الأحيان أصحاب القرار، وعلى أعلى المستويات، من أجل تصفية ناشطين، في حين أنه لم يسبق، وأن تدخل أحدهم، من أجل إطلاق سراح أي معتقل، حتى لو كان من أقربائه وطائفته. وهناك قصص كثيرة تروى في هذا المجال، وتحدث عن أن عدداً من المعتقلين جرت عمليات تصفيتهم أو تعذيبهم حتى الموت، لأن أحد ما تدخل من أجل إطلاق سراحهم.

وكتير من المذكرات والروايات والأشعار والأفلام السينمائية والمسلسلات التلفزيونية، التي تحدث عن المعتقلات والزنادين

السورية، الفردية والجماعية.

لعل أشهر الروايات هي رواية "القوعة"، التي تروي عن مشاهد التعذيب في السجون السورية. بل أن عدداً من الباحثين أطلقوا على سوريا في ثمانينيات القرن العشرين المنصرم وصف المعتقل الكبير، لكن الوصف صار سمة في جمهورية الخوف الأسدية.

وشايع أدب المعتقلات والسجون السياسية في الثقافة السورية، حيث يمكن أن نذكر قائمة طويلة من الكتاب والأدباء، الذين كتبوا عن الاعتقال والسجن السياسي، من أمثال مصطفى خليفة وياسين حج صالح وفوج بيرقدار وروزا ياسين حسن وسواهم.

ومن يقرأ كتابات وشهادات المعتقلين السوريين، يعثر على مشاهد سوداء مرعبة ومركبة، مسكونة بالقمع والقهر، وملئية بالخوف والرعب والتعذيب الجسدي والنفسي، حيث تنتشر عتمات أقبية معتقلات أجهزة الأمن السورية، وتتفوح منها روايات عفونة وموت.

لكنها، مهما بلغت من القوة، لن تتمكن من وصف حقيقة ما عاناه المعتقلون والمعتقلات، ولن تستطع أن تظهر إلى العلن إلى النذر اليسير مما جرى، ويجري، في سراديب الجنادين، وأقبية القمع والقهر، من إذلال وتعذيب ووحشية، وأن تفضح، ما استطاعت، الجرائم الواقعة على كرامة الإنسان وحقوقه.

ما زالت أذكى في إحدى ليالي الاعتقال، حين استدعي السجانون أحد المعتقلين من الزنزانة، التي وضعونا فيها، وكانت صغيرة، لا تتجاوز مساحتها المتر ونصف مربع.

كنا ثمانية أشخاص فيها. وغاب زميلنا حوالي الساعتين.... ساورنا القلق، وساد صمت ثقيل، وبعد انتظار سمعنا وقع خطى السجانين، وكانوا يسحبون جسده، فيما كانت تتعالى أصواتهم بالسباب والشتائم، ثم رموه على باب الزنزانة. لم يكن يقوى على الحراك، سحبناها إلى داخل الزنزانة. رأينا جسداً مدمى، ترتجف أطرافه، ولا يقوى على الجلوس. أبقيناه مستلقياً، ومسحنا بما توفر لدينا من قطع قماش دماءه.

وبعد أكثر من ساعتين استرجع قواه قليلاً، لكنه لم يستطع الجلوس، وساعدناه كي يسند ظهره إلى حائط الزنزانة، ثم توجه بالكلام نحوه: "... باعتبارك كاتباً، أرجو أن تذكر ما أقوله جيداً. أسمي أ. ع. المسالمة. إذا رح تسمع باسمي مرة ثانية، فتأكد أني استشهدت.. لن أترك هؤلاء المجرمين يعتقلوني مرة أخرى. الموت أرحم بكثير".

المصادر: